شعرية المديح في قصيدة "جئتم بقبس" للشاعر الموريتاني الشيخ نوح

Poetics of praise in the poem You came with the glow. By the Mauritanien poet Sheikh Nouh

عبد الغاني بن الصالح بن باري[1]*، إشراف الدكتور حسن مالك

جامعة محمد الخامس/ الرباط (المغرب) / benbari1990@gmail.com.

تاريخ الاستلام:2023/10/2 تاريخ القبول7 / 10/ 2023 تاريخ النشر: 2023/10/15

ملخص: تسعى هذه الدراسة إلى اقتناص المشاهد الفنية البديعة في همزية الشاعر الموريتاني الشيخ نوح الموسومة ب"جئتكم بقبس"، محاولة الوقوف عند بلاغة التصوير الفني في القصيدة من خلال أسلوب الأنسنة/ التشخيص الذي يعكس بعدا إستيطقيا باذخا، ونفسا رومانسيا يرسم العبارة، ويمتطي صهوة الكلمات، في مشهد آسر أخاذ. يليق بفخامة الممدوح صلى الله عليه وسلم.

كلمات مفتاحية: شعرية المديح/ بلاغة العنوان/ التصوير الفني/ شعرية التشخيص

Abstract: This study seeks to shed light on the exquisite scenes in Sheikh NUh Al-Maurit1ni's hymn termed "I Came to You with a Cap", and attempts to identify the eloquence in the peom through the stylistic element of personalization, which reflects a sumptuous aesthetic dimension and a romantic spirit that draws the phrase and rides words words on a captivating scene that suits the praiseworthy.

Keywords: Poetics of praise /The eloquence of the title /Artistic photography / personification

[1] طالب باحث بسلك الدكتوراه بجامعة محمد الخامس بالرباط.

شعرية المديح في قصيدة جئتم بقبس للشاعر الموريتاني الشيخ نوح

جئتكم بقبس:[1]

بالكَـــــــــــاد أقنصُ ومضةً[2] قدسية	كـــــــــــل الرمُوز ذبيحة الإيحاء
المُفـــــــــــرداتُ تَفر عكسَ ظلالها	والمـــــــــاءُ لا يَكفي لشرح الما ء
كانت جـــــــــراحُ الطين تكبر خلسةً	كالظل بين عروقنا...كَالـــــــــداء
يا مَرْفـــــــــأ[1] الأضْواء في أسْفارنا	مـــــا نحنُ لولا مرْفأ الأضْـــــواء؟
كُنا رَحيلا سَـــــــــادرًا[3] في غَيّه	ينساقُ خلف سَـــــــــرابه المُتنائي ..
مُتسَكعين على رصيفٍ بـــــــــاردٍ	في هَـــــــــامش التاريخ كَالغُرباء
والسيفُ والدم يرسمَـــــــــان خريطة	للإثـــــــــم بين الإخوة الأعْداء
حَتى أتيتَ تبسمتْ أقـــــــــدارُنا	وتدفـــــــق الشـــــلالُ في الصحراء
لـــــــــم تَضحك الأحْجَارُ إلا مرةً	لمـــــــــا أضاءَ النورُ غارَ حرا ء ..
لمـــــــــا أتى جبريلُ تعبق كَفـــــــــه	بالـــــــــوحي.. يُقرئ آخرَ القراء..
ومَـــــــــددتَ للفردوس دربًا باذخا	يسمـــــــــــو بكل مُسافر خطاء!
يدُك السخيةُ بالهدى مَمْـــــــــدُودة	للعَـــــــــائدينَ من الضلال النائي
رَحمُ المَجـــــــــاز يضيقُ عنكَ فيكتفي	بالرمـــــــــز عن عَينيكَ.. بالإيمَاء ..
يَا آخـــــــــرَ العنقُود[4] أنت بداية	جَـــــــــاءتْ لتُنهِي حيرَةَ الأشْياء

[1] . الشيخ نوح، ديوان أرغفة السماء، دار الأجنحة للنشر والتوزيع/السودان/ ط/2، 2022م.

[2] . ومضة: وَمْضَة [مفرد]: ج وَمَضات ووَمْضات: اسم مرَّة من ومَضَ، وَمْضة النُّبوغ :التماعته، ظهوره المفاجئ والعابر ريق من الضَّوء.

[3] . (رفأ) من البحر أو النهر: محط السفن ومرساها، ج مرافىء.

[4] . بسام قطوس، **سيمياء العنوان**، وزارة الثقافة، عمان، ط:1، 2001م، ص: 33.

1- مقدمة

يحفل تاريخ الشعر العربي بآيات من الشعر المكين، التي نظمت في مدح سيد المرسلين، صلى الله عليه وسلم، وتظل مدائح حسّان، ودالية الأعشى، ولامية زهير بن أبي سلمى وبردة البوصيري، وهمزية أحمد شوقي من أهم ما دُبِّج في هذا الباب، غير أن قرائح الشعراء ما زال تتحفنا إلى يوم الناس هذا بقصائد بديعة تتغنى بالشمائل المحمدية الرفيعة، وقصيدة "جئتم بقبس" لسليل المرابطين الشيخ نوح واحدة من أجمل ما قيل في مدح إمام الحق وسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه.

ينطلق الشاعر الموريتاني الشيخ نوح في همزيته في مدح خير البرية الموسومة ب «جئتكم بقبس» بالإقرار بكبوته في نظم القريض، مستحضرا فخامة الممدوح، وعظمة نفحاته القدسية، ومعترفا بقصور الرموز والتعابير عن بلوغ كنه ما يجيش في النفس من مشاعر فياضة، ظلت أسيرة الإيحاء. والمفردات في حالة ارتباك جلي، ترفض أن تطاوع الشاعر، وتنصاع لقريحته الشعورية. وكأنه يعيد إلى الأذهان عبارة ابن عربي: «كلما اتسع المعنى ضاقت العبارة»، على الرغم من ذلك يصرّ الشاعر على المجازفة، واعتلاء صهوة الشعر، محاولا الكشف عن شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم وفضله على الناس، حيث انتشلهم من التيه والضلال، فكانت بداية بعثته عليه نهاية للحيرة والضياع.

لقد سافر بنا الشاعر في رحلة إلى مرفإ الأضواء، حيث الأنوار النبوية تنتشر في كل الأرجاء، لتكشف عن العالمين حجب الضلال، وتزيح الغشاوة عن الأبصار.

سنحاول أن نلاس بلاغة المديح النبوي من خلال ثلاثة زوايا:

- بلاغة العنوان؛
- عذوبة الوزن:
- شعرية التشخيص.

2. بلاغة العنوان:

أولى الدارسون عناية كبيرة لدراسة عنوان النص الأدبي، فهو أول عتبة يمكن أن يطأها الباحث، قصد استنطاقها واستقرائها بصريا ولسانيا2. فالعنوان نص مكثف، يكتنف في طياته مضامين العمل الإبداعي، وهو النواة الإجمالية لمحتويات النص؛ يحمل أبعاده الدلالية، ومن ثم؛ لا يمكن ولوج عوالم النص، واقتحام مجاهيله إلا بالوقوف عند العنوان دراسة وتحليلا.

إن العنوان إشارة دالة، يؤسس لفضاء نصي واسع، قد يفجر ما كان ساكنا في وعي المتلقي أو لاوعيه من حمولة ثقافية أو فكرية يبدأ المتلقي معها فورا عملية التأويل[1]

اختار الشيخ نوح عنوانا جذابا لقصيدته، وعيا منه بأهمية العنوان في إثارة المتلقي، وشدّ اهتمامه، واستفزاز ذائقته، ويمكننا دراسة عنوان القصيدة وفق ثلاث بنيات أساس:

[1] . المرجع نفسه ص 36.

1.2 البنية المعجمية:

يكتنز عنوان القصيدة (جئتم بقبس) دلالات عديدة، قبل سبر أغوارها نقف عند المعاني المعجمية لكلمتي جاء وقبس، لكونهما النواة المشكلة للعنوان، وباعتبار الدلالة المعجمية دليلنا إلى بفهم العنوان وكشف دلالته.

جاء: جَيْئاً، ومَجِيئاً، وجَيْئَةً: أتى. ويقال: جاءَه، وجاءَ إليه. وجاءَ بالشيءِ: أتى به. والغيثُ: نزل. والأمرُ: حَدَث وتَحَقَّقَ. فهو جاءٍ، وجَيَّاءٌ. والأمرَ: فعله. ويقال: جاياً فلاناً فجاءه: غلبه في المجيء[1].

تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن ثمة فرقا بين جاء وأتي، فجاء للأمر الصعب، وأتى للأمر السهل. كما يقترن المجيء بالصعوبة والعسر والاستعصاء.

قبس: قَبَس النار والقَبَس الشُّعْلة من النار وفي التهذيب القَبَس شُعلة من نار تَقْتَبِسها من مُعْظَم واقْتِباسها الأَخذ منها وقوله تعالى بشهاب قَبَس القَبَس الجَذْوَة وهي النار التي تأْخذها في طَرَف عُود ....[2]

2.2 البنية التركيبية

جاء عنوان القصيدة جملة فعلية (خبرية)، يمكن تفكيكها وفق الترسيمة الآتية:

فعل	فاعل	مفعول به	حرف جر	اسم مجرور
جاء	(تُ)	كاف الخطاب	الباء	قبس

يتّسم العنوان بقوة تعبيرية جلية، زاد من قوتها التركيب الفعلي التي يحليلنا على الدينامية والحركة، وقد حرص الشاعر على الكثافة في العنوان بجعل الفاعل والمفعول به ضميرين على السواء. طالبا الإيجاز والاختصار الذي تمليها العنوان.

2.3 البنية الدلالية:

إن تأمل البنية المعجمية والتركيبية للعنوان يسعفنا في المسك بتلابيب البنية الدلالية، فعبارة (جئتكم) تنبئنا أن الشاعر نظم القصيدة بعد مخاض عسير، وهو في هذا السياق يستحضر- قدسية المقام المحمدي المجيد، ما جعل من القصيدة شعلة وهاجة استنارت بفيوضات الشمائل النبوية التي أضاءت الكون. ذلك ما أومأت إليه لفظة (قبس). وهو نور متجدد وممتد، لذلك اختار الشاعر الجملة الفعلية لتكون فاتحة آياته الشعرية في مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم. يتقاطع العنوان في تداخل تناصي مع قوله تعالى في سورة طه: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾[33]، وقوله في سورة القصص: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[44]

إجمالا؛ فإن العنوان قصيدة، تضاهي النص في شموليته، وأن تأمله بعمق مكننا من الإلماع إلى بعض مكنوناته.

---

[1] . المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط/2، 1972م، مادة: (جاء).

[2] . ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر/ بيروت، ط/3، 1424هـ، مادة: (قبس).

[3] .سورة طه ايه (10).

[4] .سورة القصص أيه (29).

3. عذوبة الإيقاع:

نظمت القصيدة على بحر الكامل، وهو من البحور الصافية، وقد سمي بالكامل لتكامل حركاته5، إن اختيار بحر الكامل يتساوق مع غرض القصيدة، إذ الكامل من البحور التي تتميز بعذوبة الإيقاع، وطلاوة الجرس الموسيقي، فجمع بذلك الجمال من أطرافه، فكان أنسب الأوزان لمدح أشرف من يمشي على قدم. بنيت القصيدة على الهمزة الممدود ما قبلها، وذلك تأسيا بهمزية البوصيري، وهمزية أحمد شوقي بوصفها من أجود ما جادت به قرائح الشعراء في مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم.

ومعلوم أن الهمزة حرف جهري شديد[1]، يحمل عنفوانا وقوة، وهو ما يترجم صدق المشاعر التي عبر عنها الشاعر في القصيدة.

جاءت القافية مطلقة في تساوق تام مع الدفقة الشعورية للشاعر، ما أسبغ القصيدة بإيقاع تطريبي يتردد في نهاية كل بيت، لتترنم القافية أناشيدها الطروب.

4. شعرية التشخيص:

يرسم الشاعر في القصيدة صورا بديعات، موظفا أساليب بلاغية عديدة، ولعل التشخيص/ الأنسنة/ التجسيد أكثرها حضورا في النص، و التشخيص (personification) (تجسيد) «تعبير بلاغي يسبغ فيه على التجريدات والحيوانات والمعاني والأشياء غير الحية شكلا وشخصية وسمات انفعالية إنسانية . وفي التشخيص قد يعتبر كائن أو شخص من نسج الخيال ممثلا لفكرة أو موضوع. ولكون التشخيص نوعاً من الاستعارة نجده منبعا مطروقا في الشعر، كما يظهر في أنواع أخرى من الكتابة الأدبية،[2]..

ومن تجلياته:

- المفردات تفر عكس ظلالها؛
- لم تضحك الأحجار إلا مرة؛
- رحم المجاز؛
- السيف والدم يرسمان خريطة؛

[1] . الخطيب التبريزي، **الكافي في العروض والقوافي**، تحقيق الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط/3، 1994م، ص: 58.

[2] . عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المديني بجدة، دون طبعة، دون تاريخ، ص: 43.

- تضحك الأحجار؛

- تبسمت أقدارنا .....

إن سطوة التشخيص في النص جعلت القصيدة تنبض بالحياة، وتشرق جمالا ورونقا؛ ذلك أن التشخيص نفخ الروح في أبيات القصيدة وجعلنا في حضرة مشاهد حية، نزهة للقارئين، فالمفردات تفر عكس ظلالها، في مشهد مريب كأنه يوم الحشر، يوم يبعث الناس من الأجداث، فهيمون في الأرض في حركة مضطربة، مستحضرين عظمة هذه اللحظة البرزخية، إنه بعث جديد، وحياة أخرى؛ انطلقت في شبه الجزيرة العربية مع بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أعلن ميلاد عهد جديد، أشرقت فيه أنوار التوحيد، وتجلت معاني الجمال والجلال.

حتى الأحجار رمز القسوة والشدة ابتهجت وتهللت ببعثة خير البرية، إنها روح النبوة الزكية، وحدها تُسعد البشر والحجر على السواء، فلئن كان مهمة إسعاد البشر- مهمة تعانق المستحيل، فإن مبعث النبي محمد خير البشر- صلوات الله وسلامه عليه رسم البسمة على الحجر؛ بله، البشر.

ما أجمل هذا التّجسيد الذي بنى صرحه نوحٌ! حيث جعل المجاز أما رؤوما، تخلص المبدعين من شح التعبير، وقصور التقرير، لكنه ورغم ما يتيحه من إمكانات لا ساحل لها تتدفق فيها أمواج من المعاني، فإنه يضيق عن وصف الرحمة المهداة، المشكاة التي أضاءت للعالمين مسالك الحياة ودروب الدنيا المعتمة.

السيف والدم يرسمان خريطة الإثم، فلا شيء يعلو فوق صوت السيوف، ولون الدم، فاستعارة الرسم للتعبير عن الحرب يحمل انتشاء بالحماسة بين القبائل العربية التي تربطها أواصر العروبة، وحدها الرسالة المحمدية أوقفت هذه الحروب الضارية التي كانت الجزيرة العربية مسرحا لها. لقد أجاد الشيخ نوح في رصف القصيد بإعماله لأسلوب التشخيص/الأنسنة حتى "إنك لترى بها الجمادَ حيّاً ناطقاً، والأعجمَ فصيحاً، والأجسامَ الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيّةَ باديةً جليّةً، وإذا نظرتَ في أمر المقاييس وجدتَها ولا ناصر لها أعزُّ منها، ولا رَوْنَق لها ما لم تَزِنْها، وتجدُ التشبيهات على الجملة غير مُعْجِبَةٍ ما لم تكُنْها، إن شئت أرتك المعانيَ اللطيفةَ التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئتَ لطَّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود رُوحانية لا تنالها إلاّ الظنون."[1].

إن التشخيص ملكة خالقة «تستمد قدرتها من سعة الشعور حينًا، أو من دقة الشعور حينًا آخر، فالشعور الواسع هو الذي يستوعب كلما في الأرضين والسماوات من الأجسام والمعاني، فإذا هي حية كلها؛ لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة، والشعور الدقيق هو الذي يتأثر بكل مؤثر، ويهتز لكل هامسة ولامسة، فيستبعد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير»6 يحضر التشخص في هذا النص الشعري عبر ثلاث محطات أساس:

[1] . عباس محمود العقاد، ***ابن الرومي حياته وشعره***، مؤسسة هنداوي، طبعة 2014م، ص: 234.

1.3 المشهد الأول: كبوة شاعر

يعلن الشاعر في فاتحة القصيدة أن عزاءه في هذه المجازفة هو اقتناص فيض من الأنوار المحمدية، ويعرب عن قصور الرموز في مدح النبي المختار عليه السلام، فهي تومض ولا تضيئ، وتلمّح دون أن تصرّح، الكلمات تفر عكس ظلالها في لحظة استسلام، استعظاما للشموخ الممدوح، واستحضارا لشمائله العصية على الوصف، المتأبية عن الرصف.

2.3 - المشهد الثاني: العرب بين الحرب والسراب

أدخل هنا محتوى نص العنوان الفرعي بنفس التنسيق المعتمد (الخط، المقاس، البعد بين السطور)، أدخل هنا محتوى نص العنوان الفرعي بنفس التنسيق السابق (الخط، المقاس، البعد بين السطور)

33- المشهد الثالث: شلال السعادة يصنع بهجة الأقدار

تدفّق الشلال في الصحراء فأخمد نيران الحرب، فتبسمت الأقدار، وتهللت الأحجار، وتآلفت القلوب، وغدا العرب إخوانا على سرر مستمسكين بحبل غير منفصم، إنها بداية النهاية، نهاية عهد الضلال والتيه، وفاتحة عهد جديد تشع فيه أنوار المحبة والتآخي، لقد شكلت بعثة آخر العنقود، من لا نبي بعده عليه السلام نقطة تحول في تاريخ الأمة، فقد صاغ بهدي الوحي الرباني خير أمة أخرجت للناس.

5. خاتمة:

إجمالا؛ فإن فن التشخيص جعل القصيدة تنبض الحياة، وتحفز خيال المتلقي لاسترجاع تلك الأحداث الغابرة بتصوير فني بارع، وحس تخيلي ماتع. لم يكتف الشاعر بترصيع القصيدة بأسلوب التشخيص، بل صيّر القصيدة حسناء فاتنة تبدت في كامل زينتها ولياقتها.

قائمة المراجع:

- ***القرآن الكريم***
- ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب،** دار صادر/ بيروت، ط/3، 1424هـ؛
- **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط/2، 1972م؛
- أنيس إبراهيم، **الأصوات اللغوية**، مطبعة نهضة مصر، (د-ط)، (د-ت)؛
- التبريزي الخطيب، **الكافي في العروض والقوافي**، تحقيق الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط/3، 1994م؛
- الجرجاني عبد القاهر، **أسرار البلاغة**، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المديني بجدة، دون طبعة، دون تاريخ.
- زكي مبارك، ***المدائح النبوية***، دار المحجة البيضاء، دون طبعة، دون تاريخ؛
- الشيخ نوح، **ديوان أرغفة السماء،** دار الأجنحة للنشر والتوزيع/السودان/ ط/2، 2022م
- فتحي إبراهيم، **معجم المصطلحات الأدبية**، المؤسسة العربية، صفاقس، تونس، 1986م؛
- قطوس بسام، **سيمياء العنوان**، وزارة الثقافة، عمان، ط:1، 2001م.